مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 08 عدد: 02 السنة 2022 E-ISSN:2588-2325

التصوف في الجزائر المعاصرة من الانزواء إلى المشاركة الايجابية مقاربة انثروبولوجية للتحول في وظائف الزوايا الصوفية بالجزائر زوايا منطقة الزيبان ببسكرة – انموذجا-

Sufism in Modern Algeria: From Isolation to Active Participation An Anthropological Approach to the Functional Transformation of Algerian Zaouias (A Case of the Zaouias of the Ziban Region of Biskra)

الطيب العماري *، جامعة محمد خيضر بسكرة ،lammari-taieb@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/10/31 تاريخ القبول: 2022/12/15 تاريخ النشر: 2022/12/30

ملخص:

ننطلق في دراستنا الميدانية هذه ، التي قمنا بها حول موضوع "واقع التصوف بالمجتمع الجزائري", وباعتمادنا على أداة المقابلة المفتوحة مع العديد من أفراد المجتمع بفئاتهم المختلفة ومستوياتهم التعليمية المتفاوتة و التي لاحظنا من خلالها أن الغالبية من عينة مجتمع الدراسة ليس لديهم فهم صحيح لمبادئ التصوف والأدوار والوظائف الهامة التي قامت بها مؤسسة الزوايا ويقوم بها شيوخها في محاربة الفساد الاجتماعي والمحافظة على شخصية الأمة. حيث جاءت كل الآراء تعبر عن عدم إدراك حقيقة ومبادئ التصوف لدى الغالبية من الناس والخلط بين التصوف والزهد واعتبار كلاهما من مظاهر الرهبانية التي يرفضها الإسلام وينبذها، دون ادراك أن التصوف " نظرة خاصة للحياة " .وعدم إدراك للأدوار والوظائف الهامة التي قام بها شيوخ الزوايا والطرق الصوفية في محاربة الفساد الاجتماعي والمحافظة على شخصية الأمة، وكل ما لديهم من أفكار (أي الفئات المبحوثة) هي أن التصوف مرادف للخرافات والبدع والأسوأأن البعض ذهب إلى اعتبار مؤسسات الزوايا بأنها أوكار للفساد في الدين والأخلاق .فما هي مبررات هذه النظرة السلبية اتجاه التصوف ومؤسساته؟ وماهي الادوار الجديدة التي تطلع بها هذه المؤسسة في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحاصلة اليوم؟

الكلمات المفتاحية: التصوف، الزاوية، الزهد، المدنس، المقدس.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The springboard of the current study of Sufism in the Algerian Society is the wish to investigate the attitudes of Algerians from different walks of life toward the roles of the Sufi Zaouias in the Ziban Region of Biskra. The data collection tool was an unstructured interview, which revealed once the data were analyzed that most of the interviewee did not see the Sufi Zaouias in a favorable light. These negative attitudes that range from considering the Sufi Zaouias as nests of corruption of the Islamic faith and a breach of ethics at worse and synonymous of superstition and heresy at best. It seems that the interviewees confuse Sufism and asceticism and monasticism, which are regarded by Islam as unacceptable. Regardless of the fieldwork findings, the Zaouias played a quintessential role in the colonial period when they preserved Islam by perpetuating the recitation of Qor'an and its related sciences along the teaching of Arabic and its arts. Thus, the Zaouias preserved both the faith and the cultural heritage (viz., identity). On score of that this study attempts to address the following questions: What are the reasons behind such negative attitudes? What are the new roles incumbent upon the Zaouias to meet the socio-political as well as socio-economic challenges in modern times?

Keywords: Sufism, Zaouias, ascetism, profane, Sacred.

مقدمة:

عرفت الجزائر في العقود الاخيرة عودة قوية وواسعة لحركة التصوف ممثلة في النشاط الكثيف للطرق الصوفية عبر زواياها العديدة والمنتشرة في ارجاء البلاد، في ظل تحولات اجتماعية وسياسية كبيرة وبتوجهات جديدة، وفي ظل استمرار المواقف السلبية لعامة افراد المجتمع اتجاه هذا التيار الصوفي ومؤسساته، واتهامه بنشر الخرافات والبدع التي نسبت إلى الكثير من شيوخه، وإظهاره بأنه دعوة إلى التواكل والزهد في أمور الدنيا والسياسة وأنه (اي التصوف) يحمل قيما سلبية للسيطرة على تفكير المجتمع.

ان عودة التصوف والنشاط الواسع لمؤسساته طرح الكثير من الأسئلة حول التوجهات الجديدة لهذه المؤسسات ومصيرها .وهل يمكن اعتبار عودة الزوايا والطرق الصوفية إلى النشاط على المستويين الاجتماعي والسياسي محاولة منها لاستعادة أدوارها ومكانتها الاجتماعية الثقافية التي كانت تقوم بها، مع التمسك بقداستها وطابعها الديني والروحي؟ أم هو تيار صوفي جديد فرضته المستجدات والتحولات السريعة التي يعرفها العالم عامة والمنطقة الإسلامية خاصة، حيث لم يعد التصوف حالة من الانعزال

والانزواء للعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، بل انغماس في طلب الدنيا من جاه وثروة وسعيا للمشاركة في تسيير الشأن العام؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي دفعتنا إلى هذه الدراسة العلمية محاولين فهم هذا التحول الذي تشهده مؤسسة الزاويا باعتبارها الإطار المؤسساتي الذي تتحدث عبره الطرق الصوفية.

منهج الدراسة وادواتها:

ان دراسة مثل هذه الموضوعات حيث تتشابك وتتعدد العوامل المرتبطة بالظاهرة فان المنهج الوصفي يعد أساسيا ولا غنى عنه، فالوصف الدقيق للظاهرة كما هي موجودة يجب ان لا يفهم أن مهمته هي تجميع البيانات والمعلومات فقط وإنما تمتد إلى تحليل الظاهرة، وتفسيرها للبحث عن العلاقات والأسباب المتداخلة بين عناصرها وفهم الدوافع وراء عودتها، والتنبؤ بمألاتها (عبد الله عبد الغني، 2004، صفحة 101).

اما من حيث الادوات فتعد الملاحظة بالمشاركة أهم الأدوات المستخدمة في البحث الانثروبولوجي، بل يمكن أن نقول عنها الأداة الأساسية في هذا النوع من البحوث (COPANS, p. 34)، حيث تسمح الملاحظة المباشرة للباحث بالوصف الدقيق للظاهرة وتوجيه التساؤلات اللازمة للحصول على الاستنتاجات المناسبة. بالإضافة الى اداة المقابلة مع الكثير من افراد مجتمع الدراسة، ممن يتمتعون بمكانة هامة داخل الحقل الصوفي. (وصفي،1971، صفحة 289)

1 - النظرة السلبية للتصوف و مؤسساته:

إننا ننطلق في عملنا هذا من الدراسة الميدانية التي قمنا بها حول موضوع واقع التصوف بالمجتمع الجزائري، وباعتمادنا على أداة المقابلة المفتوحة مع العديد من أفراد المجتمع بفئاته المختلفة لاحظنا أن الغالبية من عينة مجتمع الدراسة الذين اجرينا معهم المقابلة ليس لديهم من فهم صحيح لمبادئ التصوف والأدوار والوظائف الهامة التي قامت بها مؤسسة الزوايا ويقوم بها شيوخها في محاربة الفساد الاجتماعي والمحافظة على شخصية الأمة.حيث جاءت كل الآراء (الإجابات) في كل المستويات الاجتماعية والفئات المتعلمة خاصة تعبر عن موقفين سلبيين اتجاه التصوف:

<u>الموقف السلبي الأول</u>: عدم إدراك حقيقة ومبادئ التصوف لدى العامة من الناس والخلط بين التصوف والزهد واعتبار كلاهما من مظاهر الرهبانية التي يرفضها الإسلام وينبذها، بمعنى أن الكثير يرى أن التصوف هو انسحاب من الحياة (WEBER, 1971, p. 193)، دون ادراك أن التصوف " نظرة خاصة للحياة " حيث يعيش الصوفي الحياة تماما كغيره إلا أن نظرته للأمور الدنيوية تختلف عن غيره اختلافا جوهريا مداره صدق التوجه إلى الله في كل أفعاله (ibid, p. 194).

أما الموقف السلبي الثاني: فهو عدم إدراك للأدوار والوظائف الهامة التي قام بها شيوخ الزوايا والطرق الصوفية في محاربة الفساد الاجتماعي والمحافظة على شخصية الأمة، وكل ما لديهم من أفكار (أي الفئات المبحوثة) هي أن التصوف مرادف للخرافات والبدع والأسوأ أن البعض ذهب إلى اعتبار مؤسسات الزوايا بأنها أوكار للفساد في الدين والأخلاق.

ولعل هذه النظرة السلبية اتجاه التصوف تعود الى عوامل وظروف تاريخية يمكن اختصارها في:

1) تأثير الاستعمار على المجتمع في كافة النواحي الثقافية والاقتصادية والسياسية والدينية وبالتالي على الفكر الصوفي مما ولد افتقار الوعي الديني لدى الشعب. حيث عمل الاستعمار على محاربة الطرق الصوفية وزواياها المختلفة خاصة تلك التي أظهرت عداء الاستعمار عندما عمل على نشر البدع والخرافات وتشجيع هذا النوع من التدين الشعبي، جعل الأفراد يتجهون إلى اكتساب وتعلم مهارات ومبادئ وقيم جديدة لعل بعضها مناهض للفكر الصوفي.

2) عدم ملائمة طبيعة المجتمع وظروفه، خاصة بعد الاستقلال لانتشار الفكر الصوفي، إذ من طبيعته الملحوظة انعزاله وانغلاقه على ذاته. وتبني الدولة الجزائرية بعد الاستقلال استراتيجيات اجتماعية تثقيفية جديدة عن طريق مؤسسات وهيئات تنادي بمعايير وقيم واتجاهات يعتقد أنها أهم في تكوين الفرد المواطن من اجل بناء مجتمع عصري (بالمدرسة) (النجار، 1984، صفحة 214). ورأى البعض من المنجذبين إلى الفكر الغربي بان التصوف في تصورهم مرادفة للفقر والجهل والتخلف والسلبية، أي نقيض للتقدم والحداثة. وهذا ما جعل بعض الباحثين يرى أن مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية لم تعد قادرة إلا على جذب الكتل الأمية الجاهلة التي تعيش على هامش التقدم، ومن ثم كثر التشنيع على الطرق الصوفية، فاتهمت بدين لا يتطابق مع الإسلام، واللجوء إلى الشعوذة وإشاعة الأوهام والخرافات والأساطير وإقحام المجتمع في تخلف ثقافي هو سبب تخلفه الاقتصادي (محمد، 2007.، الصفحات 127-128).

3) ظهور الجمعيات والأحزاب الوطنية والمؤسسات الاجتماعية والمدنية المختلفة وإحلالها للأدوار التي تؤديها للمنتمين إليها محل الأدوار التي كانت تؤديها الطرق لأتباعها ضمن المجتمع التقليدي.

4)كذلك من بين أسباب انحصار الفكر الصوفي وتراجع دور الزوايا في المجتمع هو انتشار الفكر الديني السياسي والذي اعتمد أكثر على النخب المثقفة والمتعلمة بالمدارس حيث عمل أصحاب هذا الفكر الديني السياسي على الاستثمار في الأخطاء التي وقعت فيها بعض الزوايا والطرق الصوفية في تعاملها مع الواقع الاجتماعي والثقافي، أو الاستثمار في تلك التهم بالخرافات والبدع التي نسبت إلى الكثير من الزوايا وطرقها، كذلك إظهار التصوف بأنه دعوة إلى التواكل والزهد في أمور الدنيا والسياسة وأنها تحمل قيم سلبية للسيطرة على تفكير المجتمع.

ومن هذا المنطلق ، وفي ظل محيط كثر فيه العداء للطرق الصوفية ومؤسساتها ، لاحظنا من خلال الدراسة الميدانية أن هناك جهود كبيرة تبذل من طرف شيوخ الزوايا والمقدمين وحتى المريدين والمحبين للتعريف بالتصوف وحقيقته وبدأت معها جهود أخرى للقيام بإصلاح التصوف (محمد ا.، 2007، الصفحات 124-126)، وملاءمته للتحولات التي شهدتها المجتمعات المسلمة على نحو يمكنها من استقطاب اكبر عدد ممكن من الرجال والنساء المنحدرين من طبقات متوسطة وعليا، والمساهمة في تطور حركة الدعوة الدينية ونشر الرسالة الإسلامية من اجل الصمود أمام العلمنة، وكان من مشاغلها أن تمكن الناس من قدر ادني من الثقافة الدينية، يرافقه نشاط حثيث في بناء المعالم الدينية، وهذا يرسم الصورة التي أرادت بعض الطرق الصوفية أن تقدمها عن نفسها وعن الدور الاجتماعي الذي تنهض به. فالطرق الصوفية ليس لها مشروع سياسي كما ذكر بعض الباحثين، أنها تفضل البدء بتربية الفرد حتى تتمكن من إصلاح المجتمع (محمد ب.، 2007.، صفحة 129).

2 - التنظيم الصوفي:

بدأ التصوف طوال القرون الأولى مجرد تجربة روحانية فردية، ولا يجمع بين الأفراد أي رابط أو تنظيم، لكن تزايد الأتباع والمحبين لهذا الشيخ آو ذاك أدى إلى تمايز المجموعات حسب مذهب كل شيخ وطريقته في التعبد، ما دفع إلى ظهور طرق عديدة بتعدد المشايخ المتصوفة، ثم أصبحت لهم أماكن يلتقون بها حول شيخهم سرعان ما تحولت إلى اماكن يسكنوها رفقة شيخهم عرفت بالزاوية، وقد حتم عليهم هذا الوضع الجديد إيجاد نظم لتسييرها واقتسام الأعمال بها وتحديد الوظائف والأدوار. ومن هذا المنطلق اخذ التنظيم الصوفي في الحقيقة شكلين أساسين، تنظيم روحي وأخر إداري، وان كانت مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية في العقود الأخيرة أصبحت تميل أكثر إلى الهيكلة والتنظيم الإداري على حساب التنظيم الروحي، وهي تحولات نعتقد إنها أملتها ظروف ذاتية تتعلق بالإستراتيجية الجديدة للزوايا والطرق الصوفية في علاقتها مع السلطة السياسية، وظروف خارجية متمثلة في إستراتيجية السلطة نفسها التي تهدف إلى احتواء وتدجين الزوايا والطرق الصوفية.

وضع المتصوفة درجات ومراتب صارمة للترقي في الطريق الصوفي لا يصلها الفرد إلا بالتحلي بصفات معينة،ودرجات من الصبر والمجاهدة، تؤهله إلى الانتقال من مرتبة إلى أخرى، تبدأ بالمريد ثم النقيب ثم النجيب، وصولا إلى القطب ثم الغوث والغوث الأعظم وهي أعلى الرتب الصوفية، وفي كل مرتبة من هذه المراتب على السالك للطريق أن يظهر جملة من الصفات والأخلاق ويمكن أن تظهر عليه علامات التقوى كالأحوال والكرامات تؤهله إلى مرتبة أرقى وهكذا، وان كانت هذه التنظيمات والمراتب قد تختلف من طريقة إلى أخرى جزئيا أو كليا. هذا باختصار التنظيم الروحي في الطرائق الدينية الصوفية، والذي تتحدد من خلاله درجة التقوى والقداسة بالنسبة للسالكين، مما يرفعهم أو يرشحهم تلقائيا إلى شغل بعض الوظائف الإدارية أو القيام بأحد الأدوار في إطار خدمة الطريقة أو الزاوية.

إن هيكلة الزوايا والطرق الصوفية تمتاز بنظام هرمي يتكون من إطارات مختلفة حسب وظائفها. وهي بسيطة لكنها جد منظمة، تبدأ بالشيخ الذي يمثل رأس الهرم، وتنتهي عند المريد وهو القاعدة الأساسية في بناء الزاوية أو الطريقة، ومن خلال هذا الترتيب تتحدد الأدوار والمهام، كما سنبينه، مركزين على قاعدتين اساسيتين في الترتيب الصوفي وهما الشيخ والمريد.

الشـــيخ:

في أعلى قمة السلطة ينصب الشيخ، القائد الروحي والجسدي للطريقة، رجل نافذ السلطة والعلم، مبجل من الله الذي حباه بخصال البركة والذي جعل منه وسيطا لابد منه بين الناس، هو العارف بالله، والقادر على تربية النفوس بتشخيص عللها، وتحديد علاجها فهو المالك للكرامات وكل مقومات الولاية والصلاح (التليلي، 1992، صفحة 36) الرجل الذي له دراية تامة بالقانون الإلهي، العارف بأوجاع وعاهات النفوس وسبل علاجها لتعود إلى سبيل الله، فهو الأب المؤسس أو الوارث للتعاليم الخاصة بالطريقة، الوحيد الذي يعلم كل الأسرار، هو الذي شرفه الله بكل النعوت: الولي،صوفي ... هو شخص زاهد، شاملا لكل الفضائل، وكل العلوم، له موهبة المعجزات، وفي عبارة وجيزة هو مكمل لسيرة نخبة الرجال العظماء بورعهم وعلمهم من صوفيين ودراويش و مرابطي (DEPONT & COPPOLANI, 1897, pp. 207-208).

الشيخ لا يعترف بأي سلطة فوقه إلا سلطة الله الواحد ورسوله الكريم، ولا يتبع أي أفكار إلا التي يوحيها الله إليه أو رسوله. هذه هي الفكرة التي عند الناس فيما يخص الشيخ «إن الشيخ رجلا يمتلك قدرة إلاهية تتحكم في الأتباع من قريب ومن بعيد ولا يسير ليس فقط أمورهم المادية، بل الروحية أيضا ويجرد أتباعه من الإرادة الذاتية فيصبحون أجسادا دون روح.» (ibid, p. 209) وعلى الأعيان والأتباع والمحبين للطريقة إتباع التنظيمات ولهم حقوق متبادلة مدونة عادة في بند من وصية استخلاف المشيخة تحت عنوان "واجبات المريد" تجاه الشيخ " ...وأوصينا جميع من هو منا ومن أولادنا وذوينا أو منتسب للطريقة القادرية سواء بمدينة بسكرة أو نواحيها أن يوقروه ويحترموه، وان يكونوا إخوانا ، وعلى شعائر دين الله أعوانا..."ومنه كذلك نحو المريد. وان كانت هذه الواجبات تختلف من شيخ إلى أخر، فكل مؤسس طريقة سن واجبات الشيخ والمريد على طريقته، وما يلاحظ أن كل مؤسسي الطرائق استلهموا هذه الحقوق من مبدأ السيطرة والحكم المطلق من طرف الأعيان.

المريـدون :

وهم قاعدة الهرم، عموم الأتباع الذين يسمون حسب الطريقة الذين ينتمون إليها: إخوان، دراويش، أصحاب، فقراء، خدام...، وتعليم عموم الأتباع بسيط ولا يتطلب أي امتحان، عليه أن يتبع الإرشادات الخاصة بالطريقة وحفظ ذكر سهل والوعد بالولاء للمعلم والشيخ وتقديم مصلحة الطريقة عن مصالحه الخاصة.

في علاقته مع الشيخ يتجرد المريد من ذاتيته في القرار والانتفاع بمادياته إلا بإذن من الشيخ وحسب تعليماته، وفي حضوره لا يسمح للمريد بالكلام ولو كان واجبا دون إذن من الشيخ وإرادته. إن وضعية المريد في حضور الشيخ كالجالس بجانب البحر وينتظر طعامه. إن الشيخ بالنسبة للمريد كصاحب الوحي كسيدنا جبريل صاحب الرسالة السماوية والوحي بالرغم من أن سيدنا جبريل لم يحتكر الوحي ولا الشيخ. وعلى المريد خاصة التزام الصمت والانتباه والهدوء في انتظار ما يدليه الشيخ من تعاليم.وعلى الشيخ أن يتبع المنهج النبوي بأن يتجرد من الأحاسيس الدنيوية في معاملاته مع المريد، فبينما تخرج الكلمات من فمه يجب أن تكون روحه بعيدة كل البعد عن التكبر والرياء ويجب عليه أن يسمع مثله مثل غيره للإلهام الإلهي. لا يجب على المريد أن يرقى في روحانياته عن مستوى الشيخ وعليه أن يدعوا ويتمنى له علوا أكبر في علمه ورتبته **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}**(سورة الحجرات: الآية 2)كما يجب على المريد أن يحترم هذه الطريقة للتكلم مع الشيخ. وإن كان قلب المريد محبا ومطيعا للشيخ فسيكون كلامه مؤدبا بطبيعة الحال. يجب على المريد إتباع قواعد الاحترام في السر والعلانية تجاه الشيخ. وكلما غمضت نوايا أفعال الشيخ على المريد فعليه أن يتذكر قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الحضر ولهذا على المريد أن لا يعارض ما يفعله الشيخ لأنه يجهل حتما فحوى الأفعال.

على الأتباع الطاعة التامة للشيخ وإتباع رأيه وتطبيق أوامره دون تردد، لا يملكون شيئا لهم وكل ما يملكونه فهو للشيخ وهو ملك للشيخ. فهو عبد وأداة، جسد بلا روح، أمواله وأولاده ونفسه ملك للشيخ ولا يمكنه أن يغير من ذلك شيئا. بجانب أعيان الطريقة توجد طبقة من الأتباع يشكلون الخدم المطيع للشيخ والمقدم والذين يعيشون معه الحياة اليومية وينهلون من أحاسيسه الخصوصية إنهم تلامذته ومسيري شؤونه وأمواله وموزعو حسناته وهم الوسطاء بين الناس وهم يعيشون داخل الزاوية ويقومون بشؤونها.

3- مظاهر التحول في وظائف وهيكلة الطرق الصوفية ومؤسساتها:

إنه بالاعتماد على هذا النموذج الصوفي الطرقي للزاوية الأولية،ومقارنته بالشكل البنائي التنظيمي (الهيكلي) للزوايا العصرية والحديثة التي قمنا بمعاينتها في مجال الدراسة، فقد لاحظنا تحولات هامة في مسار التصوف مست هيكلة وتنظيمات مؤسساته وغيرا في وظائفها وادوارها.يمكن ان نقف عندها بالوصف والتحليل وهي:

3-1- إعادة تنظيم فضاء الزاوية:

لاحظنا اهتمام كبير بإعادة النظر في ترتيب فضاء الزاوية بإنشاء الأقسام والحجرات المخصصة للدروس المختلفة بعدما كانت تقام هذه الأخيرة في زوايا المسجد مما أدى إلى تراجع في وظائف المسجد وانحصار وظيفته في إقامة الصلوات أو الاحتفالات الكبرى بعدما كانت تؤدى فيه الصلاة وفضاء للتدريس

وتحفيظ القرآن وعقد القران، فك المنازعات والخلافات وغيرها، حيث أصبحت النشاطات التعليمية والعلمية تتم في أقسام منفصلة عن قاعة المسجد، وهي في كثير الأحيان مجهزه بالوسائل العصرية من مقاعد وطاولات وسبورات وأحيانا وسائل العرض السمعية البصرية الحديثة، مما افقدها ذلك السكون والقداسة، بالإضافة إلى استحداث حجرات لتقديم دروس الدعم والتحضير المدرسي للأطفال في المستويات التعليمية المختلفة وفي مواد مختلفة كاللغات والرياضيات والعلوم الطبيعية وغيرها، وهي علوم يمكن وصفها بالعلوم الدنيوية، بينما تحفيظ القرآن وعلوم الفقه وتنشئه الأطفال والشباب على المبادئ والعلوم الصوفية لم نلحظ له حضور واهتمام ،بالإضافة إلى أقسام أخرى لتعليم الكبار في إطار محو الأمية خاصة بالنسبة للنساء.

كما لاحظنا استحداث المراقد الواسعة للتكفل بالزوار والضيوف في المناسبات الكبرى كالاحتفالات بالمولد النبوي الشريف أو الاحتفال بمولد أو وفاة الشيخ المؤسس للطريقة والزاوية، قد تتسع إلى مئات الأفراد (الأشخاص) بينما عدد الطلبة الذين قد يستغلونها للإقامة لطلب العلم أصبح محدود ويعد على الأصابع، بالإضافة إلى المطابخ والكفتيريات، وقاعات الانترنت والإدارات وقاعات العلاج والمحلات التجارية وغيرها، وهي مما يعبر عن التحول الكبير في المفهوم التقليدي للزاوية، واتجاهها إلى مواكبة العصرنة والحداثة، وتصبح مؤسسة اجتماعية ثقافية لا تختلف في وظائفها عن النوادي ودور الشباب إلا بوصفها دار للعبادة تقام بها الصلوات والاحتفالات الدينية والوثيقة المرفقة (الشكل أ)

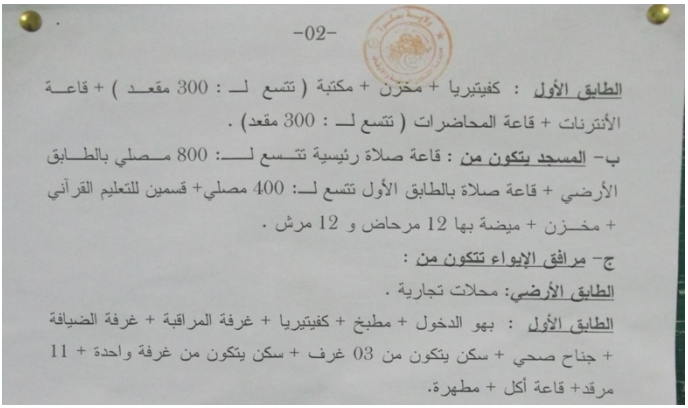
-02-

الطابق الأول : كفيتيريا + مخزن + مكتبة (تتسع لـ : 300 مقعد) + قاعة الأنترنات + قاعة المحاضرات (تتسع لـ : 300 مقعد) .

ب- المسجد يتكون من : قاعة صلاة رئيسية تتسع لـ: 800 مصلي بالطابق الأرضي + قاعة صلاة بالطابق الأول تتسع لـ: 400 مصلي+ قسمين للتعليم القرآني + مخزن + ميضة بها 12 مرحاض و 12 مرش .

ج- مرافق الإيواء تتكون من :

الطابق الأرضي: محلات تجارية .

الطابق الأول : بهو الدخول + مطبخ + كفيتيريا + غرفة المراقبة + غرفة الضيافة + جناح صحي + سكن يتكون من 03 غرف + سكن يتكون من غرفة واحدة + 11 مرقد+ قاعة أكل + مطهرة.

الشكل (أ) مرافق وهياكل زاوية عصرية ببسكرة (- بطاقة تقنية لتوسعة الزاوية القادرية حي الوادي بسكرة ،)

كما استحدثت القاعات الشرفية لاستقبال الضيوف من الفئات الخاصة كالمسؤولين والإداريين الكبار والإطارات، وهي قاعات مكيفة فخمة التأثيث تليق بمقام المسؤولين الكبار تفتح فقط عند استقبال هذه الفئات من المسؤولين والشخصيات البارزة من المجتمع، بينما يستقبل العامة في المسجد

أو قاعة عادية أو في ساحة الزاوية. لقد أصبحت بعض الزوايا ومساجدها أشبه بالقصور الفخمة التي تفنن أصحابها في توسعتها وزخرفتها وتجميلها بأفضل النقوش وافخر التجهيزات، وهذا يعطينا صورة عن حجم النفقات المادية التي تنفق على الزوايا، في حين كانت الزوايا العتيقة والقديمة تدل على ترك زخرف الدنيا وبذخها إلى حياة التقشف والسكينة، للتفرغ لحياة الزهد والعبادة والاختلاء، وهروبا من كل ما هو دنيوي مدنس إلى ما هو روحي مقدس.

2-3 الزاوية من تنظيم الطريقة إلى تنظيم الجمعية:

لم يعد قائما بسبب تراجع كبير في الأتباع والمريدين والمقبلين على الزاوية وبالتالي لم يعد بالإمكان أن يقوم التنظيم الإداري الصوفي من دون وجود العنصر البشري الكافي الذي يرتكز عليه، بالإضافة إلى الأهداف المعلن عنها في الإستراتيجية الجديدة لمؤسسة الزوايا والطرق الصوفية التي تقوم على تأسيس الجمعيات القانونية ذات الطابع المحلي أو الوطني من اجل الحصول على الدعم المالي والسياسي لمؤسساتهم، وهذا عكس ما كانت تقوم عليه منطلقات التصوف الأولى التي كانت ترفض الانخراط والمشاركة في مطالب الدنيا وتعمل على مقاومة التسلط والفساد، فالزهد في الماديات من ثروة أو منصب اعتباره من أهم الاسس التي يقوم عليها التصوف يعني عدم الخضوع للسلطة التي تقوم بتوزيع الموارد والمناصب وتملك أدوات تضييق أرزاق معارضيها، فالزهد على هذا الأساس أكثر قدرة على المقاومة والتمرد ضد الطغيان لأنه مستغني عن الشيء الذي يهيمن به السلطان على الناس.

إن التنظيم الإداري الذي يفرضه قانون الجمعيات والنوادي قد حول في الوظائف والأدوار التي يقوم بها الشيخ والخليفة والمقدم والوكيل والأتباع ذات الطابع الديني إلى وظائف دنيوية إدارية محضة لتسير جمعية قانونية ذات طابع اجتماعي ديني تهدف إلى تسيير مؤسسة لتعليم القرآن الكريم والعلم الشريف بالإضافة إلى بناء وترميم أضرحة الأولياء الصالحين والدفاع عنها. فشيخ الزاوية الرجل الزاهد، الشامل لكل الفضائل، صاحب المعجزات الذي له دراية تامة بالقانون الإلهي، العارف بأوجاع وعاهات النفوس وسبل علاجها، العالم بكل الأسرار، أصبح يمثل رئيس الجمعية (وان كان يحتفظ بمكانته الروحية بين أتباعه ومريديه وما يتطلبه ذلك من طاعة واحترام وتبجيل) ولم تعد أوامره التي كان مصدرها الإلهام والقدرة الإلهية إلزامية التطبيق ما لم يصادق عليها مكتب الجمعية بعد مناقشات ومداولات، ولم تعد سلطته وراثية بل سلطة مؤقتة (يحددها القانون أربعة سنوات) لكنها قابلة للتجديد، و(الخليفة) أو المقدم يشغل منصب أمين عام للجمعية، وأصبح الوكيل أمين للمال في الجمعية، والأتباع والمريدين يمثلون الأعضاء المشكلين لها.

إنه بهذه الأدوار والوظائف الجديدة التي يتكفل بها شـيوخ الزوايا وتابعيهم من داخل الحقل الصـوفي سـوف يزيح ويخلع على الشـيخ قداسـته ليتحول تدريجيا إلى مجرد إداري، ثم ينسـحب تدريجيا عن واجبه ووظيفته الروحانية التعبدية كمرشـد لأتباعه وداعيا إلى الطريقة إلى مجرد مسـؤول إداري في

جمعية مدنية تضـــطلع بأدوار اجتماعية وتعليمية، ليزداد مع الوقت اندماجه في الدنيوي وتزول رمزيته وقدسيته كشيخ كان يمتلك القدرة إلهية ويتحكم في الأتباع من قريب ومن بعيد، العارف بالقانون الإلهي، وبأوجاع وعاهات النفوس وسبل علاجها.

وبذلك يمكن القول بان الكثير من الوظائف كوظيفة الشـــيخ أو المقدم أو الخليفة قد تراجعت إذا لم نقل اندثرت، وبعض الشـــيوخ أو المقدمين تحولوا إلى مجرد رؤســـاء جمعيات دينية، أو أعضـــاء في هذه الجمعيات قائمون على مؤسســـة الزاوية كتحفيظ القرآن أو حضـور مجالس عقود الزواج والطلاق الشرعيين، وبعضهم اكتفى بإمامة المساجد وقليل إقامة حلقات الذكر.

3-3- الموقع السلطوي بدل عن كرامات الاولياء:

ان البركة والشـرف اللتان تمثلان الرأسـمال الرمزي لشـيوخ الزوايا و أسـاس السـلطة الروحية والسـياسـية للشـيخ، حيث تمثل قداسـة الشـيخ الآلية الأقوى في إخضـاع الجماعة والتأثير في أحوالها وفي تنظيم شـؤونها وضـبط توازناتها والحد من صـراعاتها (التليلي، 1992، صـفحة 105) ، كما تسـاعد الولي في امتلاك سـبل الجاه الدنيوي والسـلطة المادية،فبفضـل فاعلية هذه السـلطة الرمزية وقناعة المعتقدين فيها يتوسـع شـيوخ الزوايا في امتلاك المداخيل المادية، والصـدقات والهبات ، سـواء الممنوحة من جهة الدولة أو من جهة القبائل والأفراد، بل تصـبح فاعلية تلك الأدوار مطلوبة ومرغوب فيها من جهة الدولة الأفراد على السـواء (محمد ا.، 2012، صـفحة 107).لكن وبعد جهود الشـيخ في التأسـيس لزاويته التي يسعى من خلالها إلى نشر مبادئ الطريقة وكسب الأتباع والمريدين ونشر العلم الصوفي بين الناس وحثهم على الاجتهاد في العبادة والعمل الديني وترك زخارف الدنيا ومفاتنها، فان من يخلفه في الغالب يعمل على الاهتمام بتوسـعة الزاوية وزيادة مداخيلها وتعزيز مكانتها ونشـاطها بين الناس والاهتمام بشـؤون الخلق، والبحث عن الحظوة السـلطانية والإدارية، وتتزايد الرغبات الشـهوانية لامتلاك السـلطة والجاه،مما يبعده تدريجيا عن العبادة ويجعله يتمسـك بأمور دنيوية على حسـاب وظائفه الدينية، ويسـقطه في المدنس لجلب المصـالح الدنيوية متلبسـا ومتشـربا بالغطاء الديني المقدس، وتوظيف المقدس لخدمة المدنس.وهو ما عبر عنه " بول باسـكون" بالقول: "انه بقدر ما يكون ميل شـيوخ الزوايا المؤسـسـين إلى التأسـيس الرمزي، يكون طموح خلفهم اكبر لامتلاك سـبل الجاه المادي، بفعل امتداد نفوذ الزاوية الأم وزيادة فروعها، حيث تصـبح عملية اسـتثمار ورثة الشـيخ المؤسـس لرمزيته متجهة نحو الدفع بالزاوية نحو مزيد من الأدوار السـياسـية،سـواء في ظرفيات محلية أو في أوضـاع غالبا ما تكون السـلطة فيها في مركز التراجع والضعف" (محمد ا.، 2012، صفحة 105)..انه الانتقال من رمزية التأسيس حيث توظيف الزهد في الدنيا والمواهب وكشـف الكرامات،إلى مرحلة النفوذ المادي وتحصـيل المداخيل ومراكمة الجاه الدنيوي.

أما عن الشروط والمواصفات المطلوبة في الشيخ فيحدثنا عنها الإمام الجنيد بوضوح ويقول: " لا يستحق أن يكون شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وان يتورع عن جميع المحارم، وان يزهد في الدنيا، وألا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه عن مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدي به العباد فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، وإذا تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وان يخاف ويخشى من المعاصي والأدناس، وان يلازم العمل بالكتاب والسنة، يزن أقواله بميزان الشريعة والطريقة فان رأيت منه شيئا مخالفا للشرع فاتركه حتى وان كان ذا حال صحيح، فما عليك في رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدا." (عامر، 1984، الصفحات 23-25)

ومن ذلك فان أهم شروط الشيخ الذي يلقى المريد إليه نفسه أن يكون: ذا ذوق صحيح، وهمة عالية، وحالة مرضية وبصيرة نافذة، فمن كان فيه خمسة لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، والدخول فيما لا يعني، وإتباع الهوى في كل شيء وسوء الخلق من غير مبالاة (عامر، 1984، صفحة 27).

وعلى ذلك نجد أن الشيخ لا يقتصر على لبس الزي والهيئة وإرخاء العذبة وحضور الولائم، وتقول له نفسه من حين حصل لك الاعتقاد والتلامذة: أنت بخير كبير، وكلما كثر أتباعه ومعتقدوه اغتر وحمد الله، وكلما قلوا انقبض واغتم وسخط في الباطن على الله، بل لا ينبغي الالتفات لهذه الأمور بوجه من الوجوه، فشأن الفقير دوام الإقبال على الله باطنا وظاهرا بأنواع القربات والعبادات، فهو في غفلة عن أحواله الظاهرة وهذا أهل حضرة السلطان ليس لهم نظر في حال مجالسته إلى ظاهرهم، ولا إصلاح عمامتهم، ولا وسخ ثيابهم، ولا إلى سجادة يجلسون عليها، ولا غير ذلك من أحوال الغافلين عنه.

وواجب الشيخ أن يتعرف على أحوال مريديه ويتفقدهم ويتابع ظروفهم، ومن ناحية أخرى ينبغي عليه ألا يتفاخر بالمشيخة، أو لقب شيخ، هذا كلام صحيح ليس فيه كذب بخلاف لفظ السيادة والمشيخة فقد لا يكون سيدا ولا شيخا عند الله تعالى فيقع الفاعل له ذلك في الكذب، هذا الذي ينبغي للشيخ أن يظنه بنفسه دائما فيحصل من لم يعطه على ذلك، وأما التلميذ فهو مأمور بالأدب معه فلا يناديه باسمه فقط من غير لفظ سيادة أو مشيخة أو نحوها. ولا بألقابه المذمومة وإن كان حقا.

فالشـــيخ يعتبر أهم إطار في الطريقة يســـتمد نفوذه من مكانته الدينية، باعتباره العارف بالله، والقادر على تربية النفوس بتشـخيص عللها، وتحديد علاجها فهو المالك للكرامات وكل مقومات الولاية والصلاح. (التليلي، 1992، الصفحات 36-38)

إلا أن الدراســـة الميدانية كشـــفت لنا عن أمثلة كثيرة عن مشـــايخ ومقدمين للزوايا شـــباب يفتقدون إلى ادني الصـفات الأسـاسـية التي يجب أن تتوفر في الشـيخ من قداسـة وهيبة، وبعضـهم لا يحفظون القرآن الكريم إلا بعض الأجزاء منه، وليس لهم معرفة بعلوم الدين والفقه وغيرها وأوكلوا هذا

إلى أئمة الصلوات وبعض الطلبة، واكتفوا بالظهور في المناسبات الدينية، وليس المقصود من هذا الحط من قيمتهم أو تشويه صورتهم إنما توضيح خطر أو سلبية" وصول بعض الأفراد إلى رتبة المشيخة دون أن يكونوا أهلا لها، وهو أمر قد يسيء إلى الزاوية أو إلى الطرق الصوفية عامة.

3-4 -الزاوية من الانزواء إلى الانفتاح:

إن المتتبع لنشاط الزوايا يمكنه أن يلاحظ التحول الكبير في منطلقات الزاوية، فلم تعد الزوايا أماكن للانزواء والتعبد بل مؤسسات مدنية متفتحة على المجتمع، أوجدت لنفسها إستراتيجية جديدة تتماشى مع روح العصر وهذا ما عبر عنه شيوخ الزوايا بشكل صريح، مثل ما جاء في محاضرة السيد عبد القادر عثماني شيخ الزاوية العثمانية: "لقد حان الوقت ... فعلى الزوايا أن تتغير" (مفتاح، 2009، صفحة 365). لقد أصبحت الزوايا تعلن عن وجودها من خلال يافطات تنصب على مداخل المدن وتحدد موقعها من المدينة بعدما كانت ولزمن طويل أماكن منغلقة منعزلة في أماكن بعيدة(الشكل ب).

(الشكل ب)يافطات ولوحات للإعلان عن موقع الزاوية في مداخل مدينة بسكرة

كما أصبحت لها مواقع على شبكة الانترنت ومواقع الفيسبوك عددها هائل وهي غاية في البرمجة والتبويب...الخ تساهم في نشر الفكر الصوفي والمحاضرات والدروس والكتب، والتعريف بتاريخ الزوايا ومواقعها واهم نشاطاتها كما تعرف بأهل التصوف...الخ

إن المتأمل للنشاط الصوفي المعاصر والذي تعتبر الزاوية منطلقا له يجد نفسه أمام تيار جديد، صوفي المشرب، متحضر الأدوات، واسع النظرة، يتعامل مع الواقع السياسي، ويتبنى العمل التربوي المنظم من افتتاح حلقات تحفيظ القرآن واللقاءات المنظمة، واستخدام الدعوة الفردية إلى تهيئة رحلات ودروس خاصة للمريد، إلى تنظيم الأنشطة الرياضية التي يشارك فيها إلا مريديهم بل وجلب الدعاة من الصوفية كي يتبنوا الدعوة المنظمة لجلب المريدين، والتأكيد على الأنشطة المصاحبة، تكثيف العمل لنشر الفكر الصوفي في الأوساط النسائية لمحاولة كسب اكبر عدد من النساء إلى التيار الصوفي وتقليدهن مرتبة المشيخة ومنها تتحولن إلى داعيات للفكر الصوفي باستحداث أقسام لتعليم الكبار مثل مدرسة لتعليم النساء الكبيرات والأميات في الزاوية القادرية، ومن خلال الدراسة الميدانية لا حظنا اتجاه جديد في الدعوة إلى التصوف من خلال الشريط المسجل، والكتاب والقرص الالكتروني والبث الفضائي ودعاة في الأرض يتجولون في كل مكان يبشرون بدعوتهم وهم متحمسون أشد الحماسة.

- العمل الخيري قد يتجلى في الجمعيات الخيرية.

- طباعة النشرات والمطويات التي تؤيد بعض الأفكار والممارسات الصوفية والرد على معارضيهم مثل "مطوية شرعية وواجب الاحتفال بالمولد النبوي" التي أصدرتها الزاوية القادرية ببسكرة للرد على معارضي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كل سنة.

- إقامة المسابقات الثقافية والرياضية مثل مسابقات تحفيظ القرآن، التلاوة، الأحاديث النبوية...الخ، بالتنسيق بين مديريات الشؤون الدينية وهي التي تعتبر مؤسسات حكومية رسمية وبعض الزوايا في المنطقة.

- إقامة مدارس تحفيظ القرآن الكريم للبنين والبنات وتشجيع القائمين عليها. وقد تنشأ على مستوى الزاوية أو في الأحياء الشعبية.

- استغلال المساجد وتفعيل دورها وإقامة الأنشطة الدنيوي كالاحتفالات والمهرجانات المختلفة ولم يصبح المسجد ذلك الجزء المهم من الزاوية الذي ينعكف فيه المتصوفة إلى العبادة والأذكار بل أصبح المسجد هو أهم عنصر أو هيكل في الزاوية يقصده أتباع الزاوية والعامة من الناس، ففي مسجد الزاوية القادرية ببسكرة تقام الاحتفالات الكبرى بالمناسبات الدينية المختلفة، كما تنافس شيوخ الزوايا على تحسين وتجميل مساجد زواياهم من خلال التوسعة والنقوش الإسلامية، الأفرشة الفاخرة ومكبرات الصوت ورفع المآذن العالية...الخ، بل والأعلام الوطنية حيث يتداخل المقدس الدنيوي مع المقدس الديني.

- الحرص على مساعدة إتباع الزاوية لتولي مناصب إدارية وحتى سياسية هامة في المجتمع ومواطن التأثير في الناس.

إن عودة نشاط الزوايا والطرق الصوفية إلى واجهة الأحداث في المجتمعات التقليدية (الإسلامية) محكومة بعوامل سياسية منها ولا سيما صراعها مع قوى الهيمنة العالمية، وهو صراع استحضر فيه البعد الديني عندما خص الإسلام والمسلمون بالإرهاب وتم تحميلهما مسؤولية ما ترتب عليه من نتائج (جويرو، 2007، صفحة 105)وهذا ما عبرت عنه بشكل صريحمجلة "روز اليوسف" التي أصدرت ملفا كاملا عن الصوفية في *16* أ فريل *2005م* جاء فيه: «يجب أن نعترف بالإهمال والتقصير...الإهمال، لأننا أهملنا كتلة إسلامية ضخمة منتشرة في كل قرى ومدن وربوع مصر...وهي الطرق الصوفية...والتقصير لأننا لم نمد لهم أيادي العون، وتركناهم يواجهون اتهامات بالتشويه قامت بها وما زالت جماعات وتيارات إسلامية...ثم نقول: وفي هذا الملف نعيد الاعتبار إلى الصوفية. ونكشف جوهرها وفلسفتها، وتجري حوارات مع شيوخها وعلى رأسهم شيخ مشايخها، ونبحث في جذورها. وإرشاداتها في أنحاء العالم الإسلامي ونكشف أسباب وأسرار الهجوم، كل ذلك من اجل إسلام نقي وسطي معتدل يواجه التطرف الديني وينأى بنفسه عن التوظيف السياسي لتحقيق الخاصة » (المقري، صفحة 48).

فكانت العودة إلى الدين والاحتماء به شكلا من أشكال مقاومة هذه القوى. إلا أننا نرى هذه العودة مقترنة بدلالات جديدة اكتسبت بفعلها الزوايا والطرق الصوفية وظائف مختلفة عن الوظائف التي كان ينهض بها في إطار المجتمع التقليدي.

3-5- الزاوية قناة دينية لتصريف السياسي:

لم تعد الزاويا كمجال لحركية ونشاط السياسيين فقط بل شكلت قناة تواصلية اجتماعية سياسية هامة، حيث كانت ومازالت مجالات حرة بالنسبة لنشاط السياسيين بالمقارنة مع المساجد التي لطالما كانت تخضع للمراقبة. إن طبيعة المريدين في الزوايا وخاصة الطلبة منهم تتشكل من أتباع وطلبة من المدن والأرياف أي من مناطق مختلفة، وهذه نقطة لها أهميتها فطلبة البوادي والمدن البعيدة يشكلون بدورهم قنوات إيصال وتواصل تسمح بنشر الفكر الذي استقبلوه.فقد يعمل الطلبة والمريدين على نقل ما كانوا يتلقونه من شيوخهم ويكون التقديس هو العلامة الأساسية والمشتركة بينهم.ومن هنا سيستغل السياسيون هذه العلاقة بين الأتباع وشيوخ الزوايا التي تقوم على التقديس والطاعة في تمرير أفكارا وخطابات سياسية إلى العامة من الناس، والأتباع خاصة.

كما تعتبر المواسم والاحتفالات شكلا آخر من أشكال التجمع والتواصل، وهذه المناسبات قد يستغلها بعض السياسيين في تمرير وإبلاغ بعض الأفكار إلى الجماهير، إنها مناسبات لا تخلو من الاستغلال السياسي، لأنها فرصة تجمع اكبر عدد من الناس وقد يكونوا من مناطق أو ولايات مختلفة، فهي منبر إعلامي رمزي واستراتيجي لتمرير الخطاب السياسي والايديولوجي للسلطة، وشرح البرامج المختلفة، وعقد التحالفات الممكنة،وتودد السلطة إلى المجتمع والعكس صحيح، (مرقومة، 2015، صفحة 106)حيث تقوم الدولة بتاطير هذه التظاهرات بتامين المنطقة بالشرطة والجيش وسيارات

الإسعاف وغيرها من الوسائل المادية وهذا ما لاحظناه في الميدان عند الاحتفالات السنوية التي تقيمها بعض زوايا المنطقة ببسكرة بمناسبة المولد النبوي الشريف،أو ذكرى موالد او وفاة شيوخها، بالإضافة إلى ترميم الأضرحة والمزارات، وتعبيد الطرقات المؤدية إليها، وتقديم التبرعات المختلفة من الأعيان والسياسيين.

3-6-من الاحتفـــال إلى المهرجان:

من أهم الوظائف التي تقوم بها الزوايا والطرق الصوفية هي الاحتفال بالمناسبات الدينية وأهمها ذكرى المولد النبوي الشريف وتشارك الدولة والهيئات الرسمية في الاحتفال ببعض المناسبات العامة كالمولد النبوي وليلة القدر وليلة الإسراء والمعراج ورأس السنة الهجرية.كما تحتفل الطرق الصوفية وزواياها بذكرى مولد أو وفاة مؤسسها، والهدف الأساسي من الاحتفالات هو تذكير الناس بهذه المناسبة للإبقاء عليها حية في نفوسهم.

ومن الضروري التأكيد هنا على حاجة الناس إلى احتفالات تلفت أنظارهم إلى المواسم الدينية وتذكيرهم بها وبمآثره أو مآثر أصحابها للانتفاع بذكراهم، كما تمثل فرصة للتجمع والتعارف والتعاون على البر والتقوى والانصراف إلى الله تعالى بذكره، والتعبد له، والانتفاع بقراءة القرآن وسماعه بالإضافة إلى إخراج الصدقات وغيرها من أعمال الخير التي تعم المشاركين في مثل هذه الاحتفالات.

أما عن الاحتفال بذكرى الأولياء الصالحين (مولدا أو وفاة)فهي فرصة هامة للترحم على هذا الولي وتدارس أعمال وتجربة الولي الصالح وجهاده في سبيل خدمة الدين والزاوية.

إن الاحتفالات الدينية بالموالد وغيرها تمثل مناسبة اجتماعية هامة يلتقي الناس فيها على حب الاحتفال بالذكرى (الذكرى المرتبطة بالاحتفال) وتمثل صورة من صور الوحدة والاجتماع كباقي التجمعات المفروضة كالحج وصلاة الجمعة وغيرها، وهنا أي في هذه المناسبات يزداد الترابط والتماسك وتتسع شبكة العلاقات الاجتماعية،وتحافظ على الموروث الشعبي بمعتقداته وطقوسه. ومن العادات الدائمة والضرورية لمثل هذه المناسبات الإطعام الجماعي الواسع والذي يشترك فيه الفقراء والمساكين والزائرين وغيرهم ممن يحضر هذه الاحتفالات.

والمولد كما ذكر محمد الجوهري يمثل مناسبة هامة لتجديد العلاقات وتدعيمها بين الطرق الصوفية وأتباعها من خلال الولي الذي يحتفى بمولده. ففي هذه المناسبة تجتهد الزاوية (الطريقة) في جمع الأفراد من المدن والقرى مع تنظيم انتقالهم إلى مقر المولد وتدبير شؤونهم من مبيت وإطعام. أما نفقات هذه المناسبات فإنها تجمع من الاشتراكات والإعانات والهبات التي تتلقاها الزاوية(الطريقة) من أتباعها، كما تستغل هذه الاحتفالات في تجديد العهد الديني بين الأتباع وشيخ الزاوية، وكسب أعضاءوأتباع جدد (محمد ا.، 1988، صفحة 99).

وتكمن الوظيفة الأساسية لاحتفالات الموالد في تعزيز الاعتقاد في نفوس الأفراد والمريدين خاصة أولئك الذين لم يروا الشيخ المؤسس للزاوية من خلال التذكير بتعاليمه ومسلكه وطريقته وأخلاقه، بالإضافة إلى تقوية علاقتهم بالشيخ الحالي وتمتين الروابط الروحانية معه.

كما تعتبر الموالد والاحتفالات فرصة لأتباع الزاوية آو الطريقة لعقد حلقات ذكر واسعة، كذلك مناقشة بعض المشاكل والأزمات التي تمر بها الزاوية آو الوقوف على منجزاتها الجديدة ومكتسباتها، ولعل الأمر يتعدى إلى حل المشاكل الشخصية التي تعترض الأتباع والنظر في ظروفهم اليومية والمعيشية، كتزويج فقراء آو حل خصومات بين عائلتين آو فردين...الخ.

إن الحضور لهذه الاحتفالات والمناسبات كانت تحكمها معتقدات قوية ببركات الشيخ، حيث كان الولي يدعو أتباعه وأحباءه للحضور إلى هذه المناسبات، إما عن طريق رؤيا يراها البعض،أو تكليف من الولي بالحضور. أما ألان وأمام هذا التقدم التكنولوجي والعلمي خاصة منها وسائل الاتصال والتواصل فلم تعد هناك حاجة إلى رؤيا أو إلى مثل هذه الأساليب التقليدية (الروحانية)، فالزاوية أو الطريقة تعلن عن مواعيد الاحتفالات المبرمجة عن طريق مواقع الانترنت أو إرسال رسائل قصيرة للأتباع في المناطق المختلفة والتي تعتبر بمثابة دعوة رسمية يوجهها شيخ الزاوية أو الطريقة لكل الأتباع والأحباء وحتى إلى العامة من الناس، وقد تكون مصحوبة بنشر البرنامج الرسمي للاحتفال ومواعيده المضبوطة.

وتعد الاحتفالات خاصة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أهم مناسبة يتم فيها اللقاء بين الأتباع والمحبين من المناطق المختلفة، حين يحضر الأتباع من كل الأعراش والمناطق والولايات المجاورة للمشاركة في الاحتفالات، وتجديد العهد مع شيخ الزاوية. لكنها في بعض الزوايا أصبحت تشكل عبأ متعبا لما يستلزم من تحضيرات مادية ونفقات مالية ترهق الزاوية والقائمين عليها، نتيجة الأعداد الكبيرة والهائلة من الزوار الذين يتوافدون على الزاوية دفعة واحدة وهو ما يطرح مشكلات كبيرة مثل عدم القدرة على استضافتهم من مرقد وإطعام...الخ.

تعد هذه الاحتفالات مناسبات هامة لتبادل الأخبار عن أحوال الأعراش والقبائل وحتى عن نشاط الزوايا الفرعية التابعة لها وتقييم نشاط وجهود مقدمها أو خلفائها في المناطق المختلفة، وتنتهي بتحديد العهد وتوصيات الشيخ لأتباع الزاوية أو الطريقة.

وإذا كانت كل الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية المتصلة بالدين تبرز وتؤكد على الخاصية الاحتفالية للتدين الشعبي على غرار -إيزامبير- الذي يؤكد على " اعتبار الحفل أحد المكونات الأساسية" (Dermenghem.E, 1954, p. 13). هذه الخاصية التي يرى فيها أنها تسمح بالمرح والتلقائية والإبداع الجماعي، وبالقدرة على تلبية حاجات عاطفية نفسية على التعبير عن رغبة الأفراد في ربط علاقة مباشرة مع المقدس (Dermenghem.E, 1954, pp. 15-16) فإن المظاهر الاحتفالية الدينية المرتبطة بالزاوية (مثل إقامة الحضرة(*)) قد شهدت انزياحا عن دلالاتها الدينية، التي كانت قائمة على طقوس

أساسية كالأضاحي والأدعية والصلاة وتلاوة القرآن، وأخرى شعبية كالنذور والاستشفاء وطلب بركة الولي وشفاعته. بل أصبحت ممارسات غلب عليها الطابع الدنيوي حتى أضحى الاحتفال الديني، متماثلا من حيث خصائصه مع سائر الاحتفالات الدنيوية " فلا شيء اليوم في الزوايا يحيل على معان روحية أصيلة وصميمة ربما كانت ملتصقة بها، إنها تدين أكثر إلى الذاكرة الجماعية التي يحكمها التكرار الشعائري وليس إلى العمق الروحي والرمزي (عماد، السنة الجامعية 98- 1999، صفحة 421). فالجمهور الذي عاد إلى الزاوية إنما أصبح يذهب إليها الآن لأنها تتيح فضاء لممارسة الاحتفال بحضور الجماعة ولحرية ممارسة الأنشطة حتى المحظور منها ولاختراق نسق اليومي الرتيب. عاد إليها لأنها فضاء" يشعر فيه بالتفريج والتصريف، بالراحة والتنفيس وتجاوز المخاوف من الموت والطبيعة وألوان الإنقهار الاجتماعي" (الحبيب، 1992- 1993، صفحة 90).

فالزاوية أصبحت (أضحت) الملاذ لكثير من الناس يبحثون فيها عن بدائل تعويضية تشعرهم بالأمان وتحقق لهم إشباعا ولو وهميا يرتكز على اللامعقول والعجيب في مواجهة واقع يشعرهم بالغربة والإحباط (جويرو،، 2007، صفحة 111).

كما أن جمهور الزوايا لم يعد يشكل جماعة يوحد بين أفرادها المعطي القرابي- وإنما هو جمهور من الأفراد قد يوحد بينهم الاشتراك في مدخل الإقامة – أو في الولاء الرمزي للولي (بعد أن تفككت بنى القرابة: القبيلة، العائلة الموسعة وطغيان الفردانية...).

لذلك فإن عودة هذا الجمهور إلى الزاوية هي ممارسة دنيوية غالبا، لا تدين لما تحيل عليه هذه المؤسسة من عقائد بقدر ما تدين لحضور الجماعة ولما يتيحه ذلك الحضور من إمكانية الاحتفال والترفيه وقطع رتابة اليومي، وكأنهما عمليات تهدف إلى جعل المقدس الشعبي الممثل في دين الزوايا والطرق الصوفية، قادرا على مواكبة تحولات المجتمع وحركة التحديث (جويرو،، 2007، صفحة 117).

في العقد الأول من القرن العشرين كانت الطرق تسيطر كليا على الحياة الدينية، وبدءا من الثلاثينيات،بدأت الطرق تسكت معارضيها لكي توجه اهتمامها لعدو مشترك في جمعية العلماء (وهم العلماء الاصلاحيون) الذين كان هدفهم تنقية وتصفية الإسلام من البدع ومن تكريم الأولياء وتقديسهم، أي الأساس الذي تقوم عليه الطرق (جويرو، 2007، صفحة 310) إلا أن الملاحظ أن انتصار النزعة الإصلاحية كان سريعا في مداه (لكنه ليس تاما) والمهم إن نلاحظ الانتقال من المثال المركزي والمسيطر،فبعدما كان مع مطلع القرن العشرين ولكي تكون مسلما تام الإسلام عليك المشاركة في الطقوس الصوفية، وبعد خمس عقود، كان الرأي المسيطر هو أن مثل هذه المشاركة تحرم صاحبها من حق ذلك الادعاء (ارنست، 2005، صفحة 311). فما هو تفسير هذا التحول العميق والدرامي سواء أكان كليا أم لم يكن؟

إن التفسير المركزي هو أن تلك الفترة، حينما كانت النسبة الغالبة من سكان شمال أفريقيا ريفية، وجدت نفسها مدفوعة إلى أسلوب حياة يفضل المهرجانات المحلية وتقديس الأولياء وما إلى ذلك، إلى أسلوب يرفضها، إن الأسلوب الطقوسي يتماشى مع متلازمة كلية تشمل نوع المهنة، والموقع وطبيعة وأهمية العلاقات القرابية والحراك وشمولية السلطة المركزية، وفي هذه الفترة كانت البنى القبلية تتفكك (كما هو الحال في معظم الجزائر) وفي تلك الإثناء كان رجال القبائل عرضة لهذا التأثير سواء ابقوا في مناطقهم أو انتقلوا بشكل دائم للمدينة، أواشتركوا في الهجرة العملية المؤقتة (ارنست، 2005، صفحة 312).

لقد ارتبطت مؤسسة الزوايا وشيوخ الطرقية بأداء خدمات متعددة، كعلاج هذا المرض أو ذاك، إقامة المهرجانات الطرقية للترفيه، حل المشاكل والخلافات البينية، فبالنسبة للمجتمع المحلي الريفي القبلي كان ذلك مناسبا تماما، لكن بالنسبة لسكان المدن الحضريين المتحركين مقطوعي الجذور فان فائدتهم تصبح محدودة. ولم يعد الإسلام الطرقي الذي كان قائما على النشوة والمهرجانات الريفية قادر على التكيف مع الحياة الحديثة، في المقابل كان الإسلام الإصلاحي القائم على التعليم مناسبا جدا للتكيف مع حياة المدينة والحياة الحضرية.

نتائج الدراسة :

في الحقيقة لا يمكن اعتبار هذه الاستراتيجية الجديدة لمؤسسة الزوايا والطرق الصوفية بالاستراتيجية الواعية، بل تحولات خطيرة عرفتها الطرق الصوفية في مفاهيمها ووظائفها أملتها عليها السياقات الجديدة والمستجدات الطارئة التي يشهدها العالم ككل، حيث لم تعد الزوايا تلك الأماكن التي تلفها القداسة والتي أسست في الأصل للهروب من الدنس الدنيوي إلى العبادة والذكر ونشر الطريقة، بل صارت قوة كبيرة في تشكيل الشأن العام ومؤسسة من مؤسسات السلطة السياسية وأداة لخدمة مصالحها.

أما عن أسباب التحول في مسار ومواقف شيوخ الزوايا والمتصوفة من عالم القداسة إلى عالم الدنيوية فيمكن أن نوجزه فيما يلي:

- الافتقاد في العقود الأخيرة لوجود قواعد وقوانين وآداب محددة لمريد الطريقة الصوفية، والالتزام بها والحفاظ عليها يمكن أن يرتقي في مقامات الطريق لبلوغ الغاية منه، ولعل هذا يؤدي بدوره إلى افتقاد أو عدم وضوح الهدف والمبادئ والوسائل المنهجية للسير في الطريق سواء عند الخلفاء أو المريدين.
- عدم وجود مشايخ متصوفين تتوفر فيهم مقومات المشيخة من وراثة البركة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والاستقامة والتقوى بأعلى درجاتها، والكرامات التي تعبر عن علامات التقوى والصلاح وغيرها من الأسس الضرورية للمشيخة. فقد كشفت لنا الدراسة الميدانية عن أمثلة كثيرة عن مشايخ ومقدمين للزوايا شباب يفتقدون إلى ادني الصفات الأساسية التي يجب أن تتوفر في الشيخ من قداسة وهيبة،

بتخليهم التدريجي عن الممارسة الصوفية الحقة التي تقوم على الزهد والانعزال والانعكاف على الذكر والتعبد والاختلاء طلبا لبلوغ الدرجات العليا في المسار الصوفي، وتخليصا للنفس من شوائب الدنيا ومطالبها، فهم لم يتلقوا القدر الكاف من التربية الروحية وعلوم الدين، إذا لم نقل أن معظمهم تخرجوا من مدارس التعليم الحديثة العصرية، فهم بذلك مشبعون بأفكار وعلوم دنيوية عصرية، تقوم على تقديس الدنيوي، ولا تؤمن بالكرامات والخوارق، فجاءت أفكارهم تدعوا إلى تحديث الزاوية وعصرنتها وهذا ما وقفنا عليه من خلال الدراسة الميدانية. وليس المقصود من هذا الحط من قيمتهم أو تشويه صورتهم إنما توضيح خطر أو سلبية" وصول بعض الأفراد إلى رتبة المشيخة دون أن يكونوا أهلا لها، وهو أمر قد يسيء إلى الزاوية أو إلى الطرق الصوفية عامة.

- كذلك الصورة السلبية التي ترسم عند العامة حول الزوايا والطرق الصوفية نتيجة تصرفات بعض الشيوخ الزوايا خاصة تلك البدعية " التي أساءت لصورة التصوف، بالإضافة إلى مواقفها المخذلة السلبية التي ميزت وطبعت بعض الزوايا أو الطرق الصوفية في العهد الاستعماري.

- الانتشار الواسع للفكر الديني السياسي والذي اعتمد أكثر على النخب المثقفة والمتعلمة بالمدارس حيث عمل أصحاب هذا الفكر الديني السياسي على الاستثمار في الأخطاء التي وقعت فيها بعض الزوايا والطرق الصوفية في تعاملها مع الواقع الاجتماعي والثقافي، أو الاستثمار في تلك التهم بالخرافات والبدع التي نسبت إلى الكثير من الزوايا وطرقها، كذلك إظهار التصوف بأنه دعوة إلى التواكل والزهد في أمور الدنيا والسياسة وأنها تحمل قيم سلبية للسيطرة على تفكير المجتمع .

- عدم إدراك العامة من الناس بكل مستوياتهم العلمية لحقيقة التصوف ومبادئه السمحة وأهميته في الحياة الروحية. وعدم إدراكهم للأدوار والوظائف الهامة التي قام بها شيوخ الزوايا والطرق الصوفية في محاربة الفساد الاجتماعي والمحافظة على شخصية الأمة، وكل ما لديهم من أفكار هي أن التصوف مرادف للخرافات والبدع والأسوأ أن البعض ذهب إلى اعتبار مؤسسات الزوايا بأنها أوكار للفساد في الدين والأخلاق.

أما فيما تعلق بمظاهر التحول من الديني إلى الدنيوي في نشاط الزوايا: فتتجلى في التفكك في انفجار النسيج الطقوسي الذي كان يمثل الممارسات الدينية، وقد شمل هذا الانفجار أشكال ممارسة الطقوس ومرجعيتها الرمزية ودلالاتها ووظائفها.

- فمن الطقوس المرتبطة بالزوايا والتي عرفت اضمحلالا شبه تام طقس" الزيارة"، التي لم تعد طقسا ثابتا، وحتى في حال تشبث بعض الأفراد والفئات بهذه الزيارة، فإن دلالتها الرمزية بالنسبة إلى من يمارسها باتت مختلفة عن دلالتها الأصلية، فهي لم تعد من الطقوس التي تعقد بواسطتها الصلة بين المقدس والولي وأتباعه، بل إنها تمارس بصفتها عادة كثيرا ما يفرضها جيل الآباء على الجيل الجديد للإقتداء بالسلف،

من دون أن تكون لها نفس المعتقدات والدلالات الرمزية كما أنها أصبحت تخضع لنسق الحياة اليومية، و أصبحت في حال حصولها محملة بدلالات دنيوية أكثر.

- كما تحولت الاحتفالات الدينية التي كانت تقيمها الزوايا سواء المرتبطة بالموالد أو تلك المرتبطة بعدد كبير من الأولياء وفي وجهات كثيرة إلى مهرجانات محلية أو سياحية أو وطنية، توظف من قبل السلطة السياسية وفي إطار استراتيجيتها لاحتواء أو تدجين هذه المؤسسات، وتمرير مشاريعها السياسية والاجتماعية. وفقدت بذلك الاحتفالات دلالاتها الدينية، بل أصبحت ممارسات غلب عليها الطابع الدنيوي حتى أضحى الاحتفال الديني، متماثلا من حيث خصائصه مع سائر الاحتفالات الدنيوية " فلا شيء اليوم في الزوايا يحيل على معان روحية أصيلة وصميمة.

- إن الجمهور الذي عاد إلى الزاوية لا يرتبط بعلاقات زبونية مع الزاوية أو شيوخها ، إنما تمثل الزاوية بالنسبة لكثير من الناس الملاذ الذي يبحثون فيه عن بدائل تعويضية تشعرهم بالأمان وتحقق لهم إشباعا ولو وهميا يرتكز على اللامعقول والعجيب في مواجهة واقع متغير يشعرهم بالغربة والإحباط، كما لم يعد هذا جمهور يشكل جماعة يوحد بين أفرادها المعطي القرابي- وإنما هو جمهور من الأفراد قد يوحد بينهم الاشتراك في مدخل الإقامة – أو في الولاء الرمزي للولي بعد أن تفككت بنى القرابة الدموية كالقبيلة والعرش والعائلة الموسعة وغيرها. لذلك فإن عودة هذا الجمهور إلى الزاوية هي ممارسة دنيوية غالبا، لا تدين لما تحيل عليه هذه المؤسسة من عقائد بقدر ما تدين لحضور الجماعة ولما يتيحه ذلك الحضور من إمكانية الاحتفال والترفيه وقطع رتابة اليومي، وكأنهما عمليات تهدف إلى جعل المقدس الشعبي الممثل في دين الزوايا والطرق الصوفية، قادرا على مواكبة تحولات المجتمع وحركة التحديث.

خاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول: إن التصوف بطرقه ورجالاته ومريديه وزواياه لم يعد حالة من الزهد والتعبد والانعزال كما بدأ، بل صار مؤسسات ضخمة لها مكانتها الممتدة ضمن النسق الاجتماعي والسياسي، بعضها يجتهد في أن يلعب دورا دينيا وسياسيا واجتماعيا اكبر، وبعضها تماهى في الفلكلور وتم اختزاله إلى ظاهرة احتفالية بعد أن التصقت بثوب التقليدية، وتكلست عن إنتاج أي ممارسات سياسية ايجابية إلا ما تستفيد منه السلطة في تكريس نفسها. وثمة من الزوايا و الطرق الصوفية من تسعى إلى مواكبة الحداثة والانخراط في العمل العام حتى تتمكن من دفع رموزها إلى قمة الهرم السياسي.

- لكن ورغم كل هذا ومن خلال الدراسة الميدانية، نقول انه لا يمكن ولا يصح شرعا ولا واقعا أن نعمم أحكامنا على كل الزوايا والطرق الصوفية (وان كانت هي الأغلبية) فهناك زوايا وطرق صوفية كزاوية علي بن عمر الرحمانية بطولقة ما زالت متمسكة بمبادئ التصوف، وما زالت تمثل تلك الأماكن المقدسة المخصصة للعبادة والزهد، ما زالت تقليدية الهياكل والقناعات، محايدة، بعيدة عن التورط في هذا الحراك الدنيوي المتسارع، متفرغة للتعليم، مستمرة في أداء وظائف اجتماعية تقليدية.

- إذا كان من جهد علمي في هذا الاتجاه هو دراسة كل زاوية وطريقة بشكل منفرد للوصول إلى نتائج أكثر عمقا ومصداقية.

قائمة المصادر والمراجع:

بطاقة تقنية لتوسعة الزاوية القادرية حي الوادي بسكرة . بسكرة: مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية بسكرة .

الجوهري محمد. (1988). *علم الفلكلور دراسة المعتقدات الشعبية* ,. القاهرة مصر: دار المعرفة الجامعية.

الطيب: محمد. (2007). *إسلام المتصوفة*،. بيروت، لبنان،: دار الطليعة للطباعة والنشر،.

العجيلي التليلي. (1992). *الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية*،. المنوبة, جامعة تونس(1): منشورات كلية الأداب .

المازوني، محمد. (2012). *دراسات في تاريخ التصوف المغربي* ،. المملكة المغربية: مطبعة جامعة ابن زهر اكادير ،.

النجار عامر. (1984). *:التصوف النفسي* ،. القاهرة: دار المعارف.

النهدي الحبيب. (1992- 1993). الأبعاد الاجتماعية لشخصية الولي، ،دراسة نظرية وميدانية في علم الاجتماع الديني. *دراسة نظرية وميدانية في علم الاجتماع الديني شهادة الكفاءة في البحث*، . تونس،، كلية ع. إنسانية والاجتماعية.

بن الطيب محمد. (2007.). *إسلام المتصوفة*، . بيروت، لبنان،: دار الطليعة للطباعة والنشر،.

بن صولة عماد. (السنة الجامعية 98- 1999). وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي البشير نموذجا،. *أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية*- . تونس.

زهية جويرو،. (2007). *زهية جويرو، الإسلام الشعبي* ،. بيروت ، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.

عاطف وصفي،. (1971). *الانثروبولوجيا الثقافية*،. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

عامر النجار. (1984). *التصوف النفسي* ، . القاهرة ،: دار المعارف ،.

عبدالباقي مفتاح. (2009). *أضواء الطريقة الرحمانية, أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلالي وإنتشار طريقته*,. بيروت,لبنان : دار الكتب العلمية .

غانم عبد الله عبد الغني. (2004). ، *طرق البحث الانثروبولوجي،المكتب الجامعي الحديث*، .

غيلنر ارنست. (2005). *مجتمع مسلم*، . طرابلس، ليبيا: دار اويا للطباعة و النشر والتوزيع.

محمد بن عبد الله المقري. *التصوف بين التمكن والمواجهة*، . نسخة الكترونيةPDF.

منصور مرقومة. (2015). *القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي ، مقاربة انثروبولوجية*، . الجزائر : دار ابن النديم للنشر والتوزيع .

COPANS, J. , *L'enquête ethnologique de Terran*,. Nathan université.

DEPONT, O., & COPPOLANI, X. (1897). *Les Confréries Religieuses Musulmanes* . Alger.

Dermenghem.E. (1954). *Le culte des saints dans l'islam Maghrébin.* paris, Gallimard .

ibid, . - *ibid* .

WEBER, M. (1971). *, Economie et société ;.* Paris: Plon.